الدولة العثمانية والمغرب العربى
مقدمـــة

لا شك أنه يهم كل مواطن عربى أن يلم بأحوال أى جزء مـــن وطنـــه الكبير ، وأن يتعرف على أحوال مواطنيه ، وظروفهم السياسية والاقتصاديـة والاجتماعية .

وعلى الرغم من أن لبلاد المغرب العربى منزلة خاصة فـــى القلـــوب نظرا لأنهم أحفاد المجاهدين الأوائل الذين لهم ماض عريق ، ودور فعال فى أحداث العالم الإسلامى فإن الكتابة فى تاريخ المغرب العربى خلال الحكـــم العثمانى لا تزال جد قليلة خاصة فى المراكز العلمية بالمشرق العربى . فـلا تزال الجامعات ومراكز البحث الأساسية بها لا تولى تـــاريخ هـذه البـــلاد الاهتمام الذى يستحقه رغم أهميته فى مسار السياق التاريخى للعالم العربى .

حقيقة أن الفتح العربى لشمال إفريقية فى القرن السابع الميـــلادى قـد حقق الوحدة السياسية لهذه المنطقة لأول مرة فى تاريخها إلا أن هذه البـــلاد تعرضت للعديد من المخاطر خاصة من إسبانيا المجاورة التى كان يســـاندها فى ذلك فرسان القديس يوحنا لدرجة أن الإسبان استطاعوا الســـيطرة علـــى النقاط الرئيسية من سواحل المغرب الأوسط إلى أن تدخل العثمانيون لإنقـــاذ هذه البلاد ووضعوا حدا للتدخل الاسبانى فيها .

قد يتساءل البعض عن أصل الأتراك العثمانيين والسبب الذى دفعهم لمد سيطرتهم على بلدان المغرب العربى ؟

الواقع أن الروايات تختلف حول أصل الأتراك العثمانيين ، وإن كـــان العديد من المؤرخين يرجع نسبهم إلى إحدى قبائل "الغز" التى كانت تقطـــن أواسط آسيا ثم نزحت تحت الضغـــط المغولـــى صـــوب آســـيا الصغـــرى والأناضول فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى . وقد استجاب

السلطان "علاء الدين" لطلب هذه القبيلة بمنحها مكانا تستطيع الإقامة والاستقرار فيه فأقطعها عدة أقاليم ومدن ، وصار يعتمد عليها فى حروبه وظلت هذه القبيلة بقيادة "أرطغرل" فى خدمة السلطان علاء الدين . ولما توفى "أرطغرل" تولى ابنه الأكبر عثمان مكانه وهو الذى تنسب إليه الدولة العثمانية .

وقد نهج عثمان نهج والده فى الجهاد وذاع صيته ، ثم انفتح المجال أمامه بعد سقوط دولة سلاجقة الروم ، ووفاة السلطان علاء الدين فاستقل بما تحت يده من بلاد واتخذ من مدينة "ينى شهر" عاصمة له ، ودعا نفسه بسلطان العثمانيين .

وهكذا بدأت الدولة العثمانية على يديه ، واعتنق العثمانيون فى عهده الإسلام، وأصبح عقيدتهم الدينية الرسمية . وبعد وفاة عثمان فى عام ١٣٢٦م واصل ابنه "أورخان" ومن جاء بعده السير على سياسته . واستطاع العثمانيون أن يملأوا التاريخ أحداثا ، ومرت عليهم مظاهر عديدة من الحضارات ، وأصبحت إمبراطوريتهم مترامية الأطراف حيث امتدت أقاليمها وولاياتها فى آسيا وأوربا وأفريقيا وأصبحت أكبر دولة إسلامية يشيدها التاريخ فكانت حدودها تمتد شمالا إلى بلاد المجر فى أوربا وتشمل أراضيها كلا من بلاد اليونان والبوسنة والهرسك، والجبل الأسود ، وألبانيا ، وبلغاريا، والمجر والبغدان وتمتد شرقا من حدود ولاية جورجيا إلى حدود داغستان وما يلى ذلك من الشرق والجنوب والغرب أرمنيا والأناضول وما بين النهرين ، وبلاد العرب وسورية ومصر والسودان وبرقة وطرابلس وتونس .

وفى تاريخ الدولة العثمانية الكثير من الدروس سواء أكان ذلك فى مجال الحرب أو فى مجال السلم . وقد توالى على عرشها سته وثلاثون سلطانا كان منهم من لا يأتى الدهر بمثلهم إلا على فترات من الزمن ، وكان

منهم بين بين ، كما كان منهم من لا يصلح مطلقا لتولى هذا المنصب الخطير الذى وصل إليه عن طريق الوراثة مما ساعد فى النهاية على دك أركان هذه الدولة ، وظلت الفتوحات العثمانية تتجه غربا حتى عهد السلطان "سليم الأول" (١٥١٢-١٥٢٠م) الذى اتجهت الفتوحات العثمانية فى عهده نحو الشرق حيث تمكن من مد سلطانه إلى الأناضول وبلاد الشام ومصر والجزيرة العربية ٠

وفى عهد السلطان "سليمان القانونى" (١٥٢٠-١٥٦٦م) وصلت حدود الدولة إلى معظم بلدان المغرب العربى - عدا مراكش - بهدف إنقاذه من هجمات الإسبان وفرسان القديس يوحنا الذين قاموا بملاحقة المسلمين هناك ، واستطاعوا وقف هجماتهم ، وتخليص هذه البلاد من سطوتهم ٠

والجدير بالذكر أن فتوحات العثمانيين للشام ومصر جاءت من منطلق التنافس وسوء العلاقات بينهم وبين المماليك ، أما بالنسبة لبلدان المغرب العربى وبالذات الجزائر وليبيا حدثت بناء على طلب الأهالى الذين طالبوا الدولة العثمانية : بتخليصهم من الهجمات الصليبية ضد بلادهم وقد تم لهم ما أرادوا وتحولت مسئولية الجهاد هناك من الجهود الفردية للمجاهدين إلى مسئولية أكبر دولة إسلامية وقتذاك لديها العديد من القوات البرية التى تتميز بالنظام والانضباط هذا بالإضافة إلى أسطول قوى بذلت الجهود العديدة لتشييده لمواجهة أعداء الإسلام والمسلمين ٠

ويعد الجزائر أول قطر عربى يدخله العثمانيون ، ويتخذون منه قاعدة لمد سيطرتهم على طرابلس الغرب (ليبيا) وتونس فى محاولة منهم للحفاظ على إسلام وعروبة سكان شمال أفريقيا من أخطار الغزو الاستعمارى الأوربى وتكوين جبهة إسلامية لمواجهة أخطار الزحف الصليبى ٠ أما بالنسبة لمراكش فإنها لم تدخل تحت السيادة العثمانية نتيجة لتمسك الأشراف

السعديين بإبعاد النفوذ العثمانى عن بلادهم ، ولقدرتهم فى المحافظة على استقلال بلادهم من أطماع الإسبان حتى أوائل القرن العشرين ٠

وقد نجحت الدولة العثمانية فى المحافظة على المقومات الأساسية لبلدان شمال أفريقيا ، وهى الدين الإسلامى ، واللغة والثقافة العربية والاسلامية وإبعاد الزحف الاستعمارى عن هذه المناطق لفترة تراوحت بين ثلاثة وأربعة قرون وتبعا لذلك فقد تم تقسيم هذه الدراسة إلى أربعة فصول تناول الفصل الأول المعنون "الجزائر تحت الحكم العثمانى" جهاد الجزائريين لإنقاذ بلادهم من الهجمة الصليبية ، وطلبهم النجدة من أكبر دولة إسلامية فى ذلك الوقت وهى الدولة العثمانية واستجابة السلطان سليم الأول العثمانى لطلبهم ، ودخول الجزائر تحت الحكم العثمانى ، والارتكاز عليهم لتحرير باقى مدن وبلدان المغرب العربى من أيدى الإسبان ، كما تناول هذا الفصل نظام الحكم العثمانى فى الجزائر وأحوال هذه البلاد الاقتصادية والثقافية خلال هذه الفترة ٠

وتناول الفصل الثانى المعنون "ليبيا فى ظلال الحكم العثمانى" استنجاد أهل طرابلس بالسلطة العثمانية لحمايتهم منْ أخطار الهجمة الصليبية الشرسة ضد بلادهم ، وموافقة السلطان سليمان القانونى على طلبهم ، ونجاح القوات العثمانية فى طرد فرسان القديس يوحنا من ليبيا وجعلها قاعدة للأسطول العثمانى فى البحر المتوسط ، كما تناول هذا الفصل أحوال ليبيا الاقتصادية ومظاهر الحياة الثقافية خلال فترة الحكم العثمانى ٠

وتناول الفصل الثالث المعنون "تونس تحت الحكم العثمانى "الصراع المرير الذى دار بين العثمانيين والإمبراطورية الرومانية المقدسه والذى كان يحكم باسمها وتحت حمايتها "الحسن الحفصى" حتى تمكنت الدولة العثمانية إعلان تبعية تونس لها كما تناول هذا الفصل أحوال تونس الاقتصادية والاجتماعية خلال فترة الحكم العثمانى لها ٠

أما الفصل الرابع المعنون "العثمانيون ومراكش" فقد تناول أسباب بقاء مراكش خارج السيطرة العثمانية وتمكنها من الاحتفاظ بشخصيتها الإقليمية بعيدا عن العثمانيين والإسبان أما الخاتمة فقد شملت أهم نتائج هذه الدراسة .

وأخيرا آمل أن اكون قد وفقت فى إلقاء الضوء على تاريخ المغرب العربى الحديث فى ظل الحكم العثمانى ، وأن أكون قد تمكنت من إضافة شئ جديد للمكتبة التاريخية .

والله ولى التوفيق ،،

أ.د. عبد المنعم الجميعى

الإسكندرية - زهراء العجمى

سبتمبر ٢٠٠١